الشيخ عبدالسلام الخشان

وأصبحت قريتى ميت الطوج قلعة يسارية، حاول الإخوان غزوها، فأتوا بجحافل من أعضائهم من دكرنس وفارسكور والمنصورة وأحضروا كبيرهم د. خميس حميدة وحاولوا افتتاح شعبة لهم بالقرية، لكن أبناء القرية جميعا وقفوا فى وجههم صائحين «مش عايزينكم» وحتى العمدة صاح فى وجههم إذا كان عندكم مشايخ إحنا عندنا «أجدع شيخ» وكان يقصدنى.

«من حوارى مع الشيخ عبدالسلام الخشان»

الأب كالعادة فقير، لكنه كان أفقر فقراء قرية فقيرة هى أيضا، ومع ذلك كان يمتلك حلما كبيرا أن يتعلم الولد عبدالسلام ويصبح شيخا أزهريا، ليرفع الرجل رأسه وأيضا ليتخلص من الفقر.

والولد عبدالسلام ذكى وسريع الحفظ وحسن الخط. وحفظ القرآن بسرعة مذهلة، وأصبح وهو طفل خطاط القرية، تشجع الأب وضغط على نفسه ليوفر مصروفات انتقال الابن ليدرس فى المعهد الدينى الابتدائى بدمياط، ومن غيوم الفقروالإحساس بالظلم تكونت حلقة من الطلبة من أبناء القرية يتناقشون فى أيام الإجازات ويتجمعون على جسر البحر الصغير وتشتعل مناقشات لا تنتهى، آلامهم مشتركة وكذلك أحلامهم، لكن الطريق غائم، وكان عبدالسلام وصديقه الحميم السيد يوسف الأسرع نحو اكتشاف كنز المعرفة، عثر أحدهما على نسخة قديمة من كتاب «تربية سلامة موسى» وصرخ الاثنان معا بالكلمات الجديدة تماما «الاشتراكية» «الليبرالية» «الثقافة» «العدل الاجتماعى» وتجمع طلاب القرية وبدأ عبدالسلام يقرأ لهم الكتاب فصلا فصلا بصوت جهورى.

اتسعت الحلقة، وتماسكت لكن الطريق غير واضح المعالم، عام أو عامان وذهب عبدالسلام ليدرس فى المعهد الدينى الثانوى بالزقازيق.

وهناك التقى بالمصادفة،عسكرى مطافئ وهو بالتحديد عازف فى فرقة موسيقى المطافى اسمه رزق سرور، جلسة آو جلستان افترش الضوء كل مساحة عقله، التهم أكثر من كتاب ماركسى واستمع إلى عديد من المحاضرات وأصبح عضوا فى حدتو، ويعود الشيخ محملا بضوء يكفى القرية بأكملها، ومضى هو والسيد يوسف يناقشان كل سكان القرية من حارة لحارة ومصطبة لمصطبة، وأصبح الجميع يتحدثون بالكلمات الجديدة «الاستعمار» «الاستعمار الجديد» «حركة أنصار السلام» «الإقطاع» «الاستغلال» وعندما يحضر الشيخ من المنصورة مجموعة من العرائض تحمل عنوان «نداء استكهولم من أجل السلام» وقع الجميع وأخرج الفلاحون والفلاحات الأختام برضاء تام ليوقعوا على الأوراق التى أحضرها سيدنا الشيخ، الذى أصبح خطيب الجمعة فى القرية، وإمامها فى كل صلاة، وهو المفتى إن احتاج أحدهم لفتوى، وفيما تحتشد القرية كلها فى دوار العمدة لتستمع إلى خطاب عبر الراديو الوحيد فى القرية إلى النحاس باشا الذى أعلن فيه إلغاء معاهدة ١٩٣٦ صاح الشيخ «الكفاح المسلح طريق الخلاص» وهتفت القرية خلفه فى مظاهرة عارمة، شارك فيها الكثيرون من القرى المجاورة وأخذ الشيخ عبدالسلام المسألة جدا فبدأ فى جمع متطوعين من شباب القرية والقرى المجاورة ليتدربوا ثم يحملون السلاح ضمن «كتائب الأنصار» التى شكلتها حدتو، لكن حريق القاهرة يأتى وتأتى معه الأحكام العرفية وتكتم أنفاس الكفاح المسلح، وفى هذه الأثناء حصل الشيخ متفوقا على ثانوية الأزهر، ويصبح الرفيق الشيخ طالبا فى كلية أصول الدين ويشترك معنا عضوا فى «رابطة الطلبة الشيوعيين – حدتو» والتقيته فى اجتماعات عديدة، كان كثير الضحك، وفى كل اجتماع يحضر ومعه أسماء عدة من طلاب أصول الدين والكليات الأزهرية المجاورة، لكنه كان كثير الغياب عن الاجتماعات وعندما عاتبته قال: يا رفيق أنا لا تعجبنى سفسطة الأفندية، ولهذا طالبت من التنظيم أن أشارككم بعض الوقت وأن أعمل فى قرى مركز دكرنس بقية الوقت وكان طبيعيا أن يتغيب عن دروس الأزهر، ولكن ما أن يأتى آخر العام حتى يستقر فى بيت لبعض زملائه بشبرا يسجن نفسه سجنا حقيقيا يذاكر ليلا ونهارا وينجح، وكان يتعين عليه أن ينجح ليس فقط لكى ينقذ أباه من نفقات معيشته خارج القرية، وإنما لأن رابطة الطلبة كانت قد أصدرت قرارا بتنزيل كل من يرسب من الرفاق، ولم يكن يسمح لنفسه أن يعاقب بهذه العقوبة، عاش الشيخ حياته كلها فقيرا وذات يوم عقدت فى شقتى اجتماعا

لقسم الأزهر، قدمت لهم شايا وطبقا من البتى فور أرسلته أمى من المنصورة، صرخ الشيخ باشمئزاز لقم عيش حاف؟ إحنا ناقصين فقر، وطالبته بأن يتذوقها فصرخ بعد أول قطعة فى فمه «دلوقت عرفت ليه الرأسماليين متمسكين بالاستغلال»، وعندما تأتى ثورة يوليو سارعت حدتو لتحقق بعضا من أحلامها فدعت رفاقها لتشكيل نقابات للعمال الزراعيين واتحادات للفلاحين وتعاونيات، ودعا الشيخ عبدالسلام فلاحى القرية لتأسيس اتحاد للفلاحين، لكن أحد الإخوان المسلمين من قرية مجاورة أسرع ليبلغ الأمن أن هناك اجتماعا مناهضا للثورة، وأتت حملة ضخمة من البوليس، فكل الناس تسمى ميت الحلوج بالقرية الحمراء ويقبض على العديد من الرجال ومعهم الشيخ، ليفرج عنهم بعد قليل، ولكن الصدام يقع بين حدتو ويوليو، ويهرب الشيخ ليتنقل من قرية لقرية، ومدينة لأخرى ولأنه كان يعتمد فقط على ما يرسله أبوه من قروش قليلة فقد عاش على الكفاف، وأخيرا لم يجد الأب بدا، وباع آخر ما يمتلك «الحمار» وأرسل ثمنه للشيخ والشيخ المناضل يعيش فى أحضان الجماهير حقا وصدقا ينام ليلا فى أحد الحقول ثم يجتاز الحقول من قرية لقرية، البوليس يطارده وأعضاء جماعة الإخوان يطاردونه وأشاعوا إشاعات غاية فى الغرابة يقول بعضها إن روسيا أرسلت له طائرة مملوءة بالجنيهات ليصرف منها، لكن الفلاحين يعرفون أن أباه باع حماره وكل ما يمتلك ليكفل لابنه الكفاف، ويأتى عدوان ١٩٥٦ ويكف الأمن عن مطاردته فهو يتدرب سريعا مع عشرات من رفاقه ليدخلوا سرا إلى بورسعيد المحتلة، ويخوضون معركة ضارية ضد الاحتلال.

وبعد انسحاب الاحتلال يعود الشيخ للظهور من جديد وينجح فى إعادة قيده بالكلية ويواصل دراسته حتى يحصل على شهادة العالمية، ويخوض الشيخ انتخابات المحليات ويطبع بيانات موقعا عليها «الشيخ عبدالسلام الخشان.. من العلماء» ويجن جنون خصومه من الإخوان ورجال الأمن، ثم يأتى الزمن الصعب فى يناير ١٩٥٩ ويبدأ الصدام مرة أخرى حول الديمقراطية ويفلت الشيخ من الحملة الأولى، وذات يوم التقينا بالمصادفة على كوبرى أبوالعلا، هو هارب وأنا أيضا، قضينا سويعات معا ثم افترقنا لنلتقى بعد أشهر فى السجن، الشيخ تعرض لتعذيب وحشى لكنه صمد صمودا لا يتصوره إنسان، ويبقى الرجل رجلا يستحق احترام الجميع، ويأتى الإفراج فى أبريل ١٩٦٤ ليخرج مع الجميع، الشيخ الآن يعيش فى ميت الحلوج مريضا ثم يلتحق بعمل إدارى بسيط فى مصنع

الخشب الحبيبى بسندوب، الأمن يحاصر كل خطوة والشيخ يحاول، لكن لطمة حل الحزب تضربه ضربة موجعة، والمرض الذى يترصد الفلاحين «البلهارسيا» كان قد تمكن منه فتمكنت منه دوالى المرئ، ورقد الشيخ المريض فى مستشفى الجمهورية بالقاهرة وكلما زرته أكتشف مخبرا أو أكثر يترصدونه ويترصدون من يزوره، يكتبون كل الأسماء ولست أدرى لماذا، اسم واحد لم يكتبوه هو طائر الموت، فالشيخ الصلب كالحديد لم يعد يجد مبررا للحياة أبوه مات وهو هارب، وأمه ماتت وهو فى السجن والوظيفة مملة بل قاتلة.. والحزب الذى كان عنده أغلى من أى شىء تم حله.. وميت الحلوج بعيدة عن يده المريضة، فلاحون يأتون لزيارته فيمنعهم حتى لا تسجل أسماؤهم على يدى المخبرين، وباختصار صارت الحياة مريرة ولا مبرر لها، وكما امتلك إصرارا حاسما على النضال امتلك أيضا إصرارا على الرحيل من حياة لا طعم لها ولا مبرر للبقاء فيها، وفى آخر زياراتى له، احتضننى بحنان وانهمرت دموعه، فعاتبته إيه يا عبدالسلام فين صلابتك فقال فى وهن «صلابتى هى أننى قررت الرحيل» ورحل بعدها بأيام.